على هامش التنمية العربية... المستقلة!
صور مأساوية من الحقبة النفطية

د. محمد محمود الامام

مستشار اقتصادي في صندوق النقد العربي - ابو ظبي

- ١ -

كان قبل أن يتحول الى «وافد» يشغل منصبا ذا شأن... إذا حل بمقر عمله تصاعدت الهمسات «عوض .. عوض»، فذلك هو اسمه، يستخدم رمزا لكي يلتزم من تحت امرته بمظهر الجدية في العمل. زرته في غرفة مساحتها ستة أمتار مربعة هي إحدى غرف بيت من البيوت الشعبية يشاركه آخرون فيه السكنى، بها فراش يستظهر جسده بالكاد... أمامه ثلاجة صغيرة استخدمها كحامل لتليفزيون ملون. وبجانب ذلك منضدة صغيرة يستعملها لأغراض شتى، وبجوارها مقعد أخلاه لي، ليجلس على فراشه، ثم يسرح بطرف عينه الى جهاز التكييف الذي لا يمكن العيش بدونه في ذلك الجو الرطب الحار... ثم يمضي في تفكير عميق. قلت ماذا بك؟ قال: إنني أقارن بين أيام كنت فيها في شبابي موفدا من الحكومة المصرية إلى بلد عربي... كان المرتب صغيرا نقتطع منه ما يمكننا من شراء بعض الهدايا للأصدقاء حرصا على نزر يسير يفيض نصلح به أمورنا. لكننا كنا سعداء... نشعر أننا نسهم في بناء وطن عربي كبير. ورغم أن الاقامة كانت دون المستوى الذي تعودناه في بلدنا (على محدوديته) إلا أنها لم تصل بي إلى هذا الحال الذي أصابني من «عقد محلي» ارتضيته واهماً من المقارنات الرقمية أنني سأرتب لنفسي حياة كريمة ثم مدخرات عجز مرتبي - الذي بات قاصراً عن الوقوف أمام التضخم الانفتاحي - عن أن يوفرها. فكان هذا مآلي. والأدهى أن أولادي الذين لم تسمح الظروف باصطحابهم (فلا يمكن أن أكدسهم في هذه الغرفة وأن أفيَ بمتطلبات حياتهم في ظل الغلاء الفاحش الذي يسود هذه المنطقة، بالقياس إلى الراتب المحدود الذي أتقاضاه) يزودونني بقائمة طلبات لا حصر لها.. هذا يريد فيديو وذاك يرنو إلى جهاز تسجيل يحتاج بملحقاته إلى غرفة كاملة، وثالث يطلب آلات لعب اليكترونية، والجميع يطلبون أنواعا من الملابس لم أسمع بها من قبل... الخ. فإذا عنفتهم قالوا... لسنا أقل من زملاء لنا، خاصة وأنت تعمل في بلاد المال.

- ٢ -

صادفت في المطار فلاحاً مصرياً، عرّفني بنفسه... اسمه عوضين. ويريد أن يحملني شريطا مسجلا إلى أسرته. سألته: ماذا تعمل؟ قال لي: لم أجد في الزراعة ما يعينني على مطالب الحياة، ورأيت جيرة لي تتبدل أمورهم بالسفر إلى الخارج، فسعيت حتى وفقني الله إلى عقد في عملية تشييد.. ما أن ينتهي وأعود حتى أجدّ في البحث عن غيره.. فمدّخراتي سرعان ما تنفد. قلت: لماذا لا تكتب خطابا يسهل علي إرساله بالبريد. قال: إن دروس محو الأمية لم تصل بي إلى حد كتابة الخطابات. والآن أغناني الله عن استجداء الكتابة من آخرين. فقد اشتريت جهازيْ تسجيل تركت أحدهما للأسرة من سفرة سابقة. والتسجيل يسمح لي بقول الكثير مما لم أكن أستطيع البوح به أمام كاتبي خطاباتي، ثم هو اختراع عجيب ينقل إليهم صوتي وينقل لي أصواتهم، فنحسّ بقرب لا تولده الخطابات. سألته عن الموعد المناسب لزيارة الأسرة حتى لا تضيع رحلتي هباء... قال في أي وقت. فالحمد لله أعانت مدخراتي أفراد الأسرة من عناء العمل. ذهبت إلى العنوان، فوجدته لا يختلف عما ألفته من بيوت ملايين الفلاحين المعروفة حيث التعايش تام بين مخلوقات الله: الانسان والحيوان والحشرات. قرعت آذاني أنغام صاخبة عرفت فيما بعد من أبناء عوضين أنها لمخلوق يدعى توم جونز. واستأذنت ربة البيت دقيقتين لتنهي كيّ قميص مزخرف لأحد ابنائها بمكواة كهربائية وفتحت ثلاجة في ركن البيت لتقدم لي بعض المرطبات ريثما تقوم بإعداد كوب من شاي ساخن على موقد غازي.. وعجبت لقدرة الله التي جمعت أطراف قرون متباعدة في مكان واحد وزمان واحد.

- ٣ -

أسعدني لقاء في القاهرة بالدكتور عوض الله وهو زميل لي استاذ في الجامعة طال غيابه. قلت: ما لي أراك شديد الانشغال؟ قال: ماذا افعل والراتب محدود؟ إنني أقوم بأعمال استشارية إلى جانب انتدابات في عدة أماكن حتى أسدّ رمق أفراد أسرة كبيرة. قلت: ما بالك وعهدي بك ممن يؤمنون بتنظيم الأسرة؟ قال كان ذلك فيما مضى، قبل أن أقيم ردحا من الزمن في قطر عربي يُحرّم هذا التنظيم ويحظر تعاطي الموانع. لقد تغير التفكير خاصة وأن الراتب هناك كان يسمح بحياة سهلة افتقدناها جميعاً بالعودة. وأنا الآن في انتظار «إيفاء العدّة» قلت ماذا تقصد؟ قال إن القوانين لا تسمح بإعارة جديدة قبل مضيّ فترة محددة، تماما كالثيب التي تنتظر فترة العِدة قبل أن تعاود الزواج. فأنا الآن في مرحلة ترانزيت في بلدي. ولا أدري ما هي النهاية. ومما يحز في نفسي أن هذا ينعكس على عملي. فقد عدت لأجابه في الجامعة أعدادا ضخمة احالتني إلى ببغاء تردد عبارات دون وعي، منتظراً لحظة الإفراج لكي أفرّ هارباً من هذا الحشد الذي تحول في نظري إلى أرقام... متحسراً على أيام كنت أشعر فيها بدور تربوي. ولعل مما ساعد نوعاً على الاحتمال أنني في الخارج لا أجد دافعا إلى ذلك الدور رغم قلة الاعداد. فأنا أصادف شبابا يشعرون أن الجامعة نزهة خلوية. وأن العلم زينة لا تقدم ولا تؤخر في عملية جمع مال، تعددت أمامهم سبل الوصول إليه، ولو أن ما يؤلمني هناك هو ما أشعر به منهم من استعلاء.

- ٤ -

عدت إلى داري مثقل القلب، فوجدت بها ما يحتاج إلى إصلاح. وَصَفوا لي محلاً لإقامة

الأسطى معـوّض، ولم أكن أتخيـل أن البشر يستطيعون الاقامة في ذلك الجحر الذي رأيته. وجدته ينفث من فمـه دخانـا غريب الـرائحة، وتبـدو في عينيه نظـرات تفسر مـا تحفـل بـه الجرائد اليومية من أنباء عما استحدثه عـالم الحضـارة الغربيـة من حبوب... سـألته عمـا يطلبه لعمل محـدود.. ذكر لي رقمـا هلعت له، لأنه يتجاوز في ساعات ما يحصل عليه خريـج الجامعة في شهر. ثم عجبت كيف له، وهذا هو دخلـه، أن يعيش في ذلـك المكـان.. قـال: إن المساكن الجديدة كلها فاخرة وهي أبعـد منالا من أن يفكّر في الاقتراب منهـا... فالايجـارات - إن وجدت ... لأن الغالبية تمليك - أرقـامها خيـالية. وعجبت كيف نشـأت حلقـة مفـرغـة جـديدة... فَـلأنّ هذا العـامل تمكّن، في غيبـة أقرانه في المهنة في الخارج، من رفـع أجره إلى هـذا الحد، لم يعـد في الامكان أن يتـوفر لـه ولأمثاله أن يحصلـوا على سكن مـلائم. وكان المخـرج هو الحبـوب... المستوردة مـع بـاقي المستوردات الانفتاحية!

- ٥ -

تـوجهت إلى النـادي علّني أُمضي لحظـات أنسى فيها العناء... صـادفت أحد الأخـوة في منظمة دولية مقرّها أمريكا. قدم لي ابنه الـذي لا يكـاد يفقه من العـربية شيئـاً. ذكر لي أنـه أراد أن يمهـد بزيـارة لعودة الأسـرة، بما في ذلك الابن الذي ولد ونشأ هنـاك. سألت الابن عن رأيـه قـال إنـه لا يعتقـد أن راتب والـده يسمح له بـالعيش في القاهـرة. سألتـه: لماذا؟ قال لأنني أجد فيهـا أنواعـا من السيارات لا يحلم بها الامريكي العادي ونمطاً من الإنفـاق يعتبره من هم في سنه عادياً، لم يفكر لحظة في أن يتبعه في أمريكا. وهو يرى في البنايـة التي يقطنهـا في القـاهـرة نـوعـاً من «السيـاحـة الاستيطانية» العربية تنفق عـلى اللهو والمتعـة وتبـذر في أنواع المـأكولات ومطـالب الحيـاة، وتشد إليها جيشا من المنتفعين الذين ينظرون إليـه شزراً لأنـه لا يجود بمثـل ما يجـودون. فـإذا أراد البحث عن متنفس للتـرفيـه وجـد التليفـزيون يعـجّ بأفـلام وإعلانـات عن سلع أمـريكيـة لم يكن ليصـادفهـا في اقـامتـه في امريكا. وإذا جاء الى النادي بحثا عن رياضة أو ثقافة وجد الشباب منصرفين إلى أمور أبعد ما تكون عما يبحث عنه. إنـه يشعر أنـه فقير وغـريب في وطن كـان يحنّ إلى العـودة إليـه ليسهم في بنائه وانتشاله من وهدة التخلف...

هذه بضعة من نماذج صادفتهـا... غير أن الأسماء من عندي حرصا على أصحابها وهي مستمـدة من عبـارة يـرددهـا من يشيـع في نفوسهم اليأس: عليه العوض ومنه العوض □